المكتبات وهواة الكتب فى اسبانيا الإسلامية[1]

للأستاذ خوليانه ريبيرا

ترجمة الدكتور جمال محمد محرز

بعد أن تم لفرناندو وايزابلا فتح مدينة غرناطة ، أصدرا أمرهما إلى المسلمين بأن يقدموا كل ما لديهم من كتب عربية إلى القضاة ، ليعهد بها هؤلاء إلى خبراء لفحصها ، على أن ترد إلى المسلمين كتب الفلسفة والطب والتاريخ ، ويحرق ما عداها . وقد رأى الملكان الكاثوليكيان أن فى ذلك الإجراء وسيلة تسهل تحويل المسلمين عن دينهم إلى المسيحية .

ولم يقدر لهذا الأمر أن يتم ، نظراً لتسامح القائمين على تنفيذه ، ولكن الكاردينال ثيسنيروس — تلك الشخصية الحازمة — رأى أنه لا بد من تنفيذ هذا الأمر بحزم ، فأصدر أوامر مشددة بذلك ، مما أدى إلى جمع آلاف المخطوطات العربية وإحراقها فى ميدان باب الرملة بغرناطة .

هذه الحادثة التى وقعت فى ميدان عام ، وشهدها جم غفير من الناس ، ورواها مؤرخون عاصروها ، والتى سبقت عصرنا مباشرة ، قد حورت بدون شك تحويراً كبيراً نتيجة شعور المؤيدين لهذه السياسة ، وللاحساس بالتعصب الدينى ، مما جعل مهمة البحث الدقيق عنها صعبة جداً على الأشخاص المحايدين . وقد اتفق أشد الناس معارضة لهذا الأمر على تحريف الرواية أيضاً . أما المؤرخون المؤيدون للكاردينال فى تصرفه ، اعتقاداً منهم أن ما قام به

---

(١) Julian Ribera y Tarrago : *Bibliôfolos y Bibliotecas en la Espana musulmana.* (Disertaciones y Opùscules T. I P 181-218 Madrid 1928).

ألقى هذا البحث لأول مرة فى كليـــة الطب والعلوم بجامعة سرقسطة ونشر فى مجلة *La Dereche* بسرقسطة وكذلك فى مجلة : *Tipografia de la Derecha* 1896. بسرقسطة أيضا . ثم طبع للمرة الثالثة عام ١٩٢٥ على نفقة الأكاديمية الملكية للعلوم والفنون الجميلة والنبيلة بقرطبة . وها هى النشرة الرابعة مشتملة على النصوص وهى التى نترجمها الآن إلى اللغة العربية .

الكاردينال هو الطريقة الفعالة لمنع تغلغل الدين فى نفوس المسلمين ، فلم يجدوا مانعاً من أن يزيدوا فى عدد الكتب التى أحرقت ، ظناً منهم أنه كلما ارتفع عددها زادت قيمة الحادث نفسه . أما هؤلاء الذين أثارت الحادثة استياءهم ، فقد دفعتهم إلى تحقير العمل ضد الثروة الأدبية التى كان من الواجب المحافظة عليها فلم يترددوا بدورهم فى أن يكثروا من عدد المخطوطات ، تبريراً للاستياء الذى يضمرونه ضد الغضب الوحشى المتولد من الاضطهاد الدينى . وقليلون هم فى الواقع المحايدون الذين لم يسمحوا لأنفسهم بالسير فى هذا الاتجاه .

وقد أصبحت هذه العملية حدثاً هاماً ومحلا لتضارب الآراء . فظهر فى غرناطة ، منذ عهد غير بعيد ، رأى أدى إلى إثارة النفوس لدرجة كبيرة ، إذ أن صحفياً متحرر الرأى جداً ، لا يعرف العربية — الأمر الذى لا يسبب له خسارة ما من وراء هذا الحريق — قام برسم صورة معتمة لتلك الجريمة البشعة للاضطهاد الذى اقترفه الكاردينال ثيسنيروس ، بتقديمه دون إحساس أو شعور إلى النيران المضطرمة فى الميدان مليونين من الكتب المشتملة على حكمة المسلمين العظيمة (من الواضح أن حب هذا الصحفى للمسلمين قد دفعه إلى مضاعفة عدد الكتب فجعل من الآلاف ملايينا ، متأسفاً لضياع هــذه المجموعة التى كانت عديمة الفائدة له) وعلى العكس من ذلك برز للدفاع العالم الأستاذ سيمونيه الذى كرس جهوده لدراسة اللغة العربية ، وهو فى محاولته وضع الأمور فى نصابها بكل ما فيه من شعور دافق تقليدى للدفاع عن ثيسنيروس ، قد أكد (اغتباطاً منه لإحراق هذه المجموعة التى لم تكن ذات قيمة من حيث دراستها) أنه كان من المستحيل تقريباً وجود هذا العدد من المخطوطات فى إسبانيا الإسلامية ، لأنه لو توفر للمسلمين مليونان من المخطوطات لكان معنى ذلك أنهم كانوا أكثر الناس علماً وثقافة فى هذا العالم ، ويضيف أن المخطوطات التى وصلت إلينا لا تؤيد هذا القول ، كما لايؤيده التأخر الحضارى الذى شهدته اسبانيا كما هو مشاهد الآن فى البلاد الإسلامية ، مما يدل على أنها لم تتعد حدود الهمجية [1] .

(١) فى البحث الذى كتبه السيد فرانسيسكو خابييه سيمونيه المستشرق عن الكاردينال خيمينث ثيسنيروس فى المخطوطات العربية الغرناطية تمادى فى القول إلى درجة التأكيد بأن ما يقال عن ثقافة هؤلاء المسلمين وإزدهارهم فيه الكثير من الافتراضات والأوهام والخرافات .

حركت هذه التأكيدات المغالى فيها رغبتى فى أن أدرس إلى أى مدى كان يهتم المسلمون الاسبان بالكتب ويشغفون بها ، فضلا عن أن ذلك فى حد ذاته يعتبر نقطة هامة جداً لدراسة تاريخهم الأدبى كما يخيل إلىّ .

وإنى أعلن ، نتيجة للدراسة التى قمت بها ، أنه لم يكن من الممكن فقط وجود هذين المليونين من الكتب عند المسلمين الاسبان بل إن ذلك كان حقيقة واقعة . وليس معنى ذلك أن نقول أنهم كانوا حتما أكثر شعوب العالم ثقافة لأن اقتناء كتب كثيرة لا يعنى ارتفاع مستوى التعليم — وما أكثر العلماء لو صح هذا ، — ولكن مجرد اقتناء مليونين من الكتب يدل فى ذاته وبشكل ظاهر — فى رأيى — على أن اسبانيا الإسلامية قد تخطت بمراحل عديدة حدود الهمجية .

وكانت مفاجأة سارة لم أكن أتوقعها عندما عثرت أثناء بحثى هـــذا الموضوع على أقوال أكثر مما كنت أتوقع ، جعلتنى أشك فى بداية الأمر فى صحة تلك الأقوال التى أوردها المؤرخون وكانت هذه من الكثرة والذيوع بحيث دفعتنى إلى الاعتقاد بالمبالغة فيها . ولكنها متنوعة ، وترجع إلى حقب عدة ، وتنسب إلى طوائف متباينة ، وأصحاب عقائد مختلفة واتجاهات لا صلة لها بموضوع بحثنا ، غير أنها كانت متفقة فيما بينها ، مما أدى إلى القضاء على شكوكى ، وإنى أعترف رغم كل هذا بأنى لم أقتنع نهائياً بذلك إلا بعد أن عثرت على إيضاح لهذه الأعمال العادية فى رأيى .

من المظاهر التاريخية التى يصعب تفسيرها تلك الظاهرة النادرة التى نصادفها فى خط ذلك الشعب العربى ، الذى يتكون من مجموعات متفرقة صغيرة العدد ، ومن قبائل فقيرة ، يعنى معظمها بالرعى ، والتى لا مراكز إقامة لها تستحق أن تذكر ، ولا مساكن ثابتة أكثر من أرض بلاد العرب القاحلة المحرومة من المطر الغزير ومن الأنهار حتى الصغير منها ، أقول إن لهذا الشعب عادات شبه بدائية ، يندر أن تكون متأثرة بالحضارات المختلفة التى تعاقبت على حدود شبه الجزيرة . وبالرغم من ذلك كله كانت لهذه القبائل أبجدية وكان لها خط مدون مما لا يوجد إلا فى البلاد العريقة فى الحضارة ، حيث تدعو ضرورات التجارة والاتصال إلى ابتكاره أو اقتباسه .

ونصادف هنا حقيقة واقعة وعجيبة معاً فالكتابة العربية تتكون من خط متصل تقريباً لا تكاد تبرز فيه التعرجات، بما لا تماثلها فى ذلك الكتابة الرومانية أو اليونانية أو العبرية ، وهى شبيهة فقط بما تكتبه الآلة الكاتبة الحديثة . ونظراً لأن الكلمات تتكون من مقاطع ، ونصف الحروف لا يرسم ، كان الاعتماد على فطنة القارىء الذى يستطيع أن يكمل هذه الكلمات ، أو يتكهن بالحروف الناقصة . فالاسم المكون من أربعة مقاطع أو خمسة يكتب بسرعة كبيرة وفى وقت قصير شأنه فى ذلك شأن الحروف الساكنة فى لغتنا الإسبانية . فاسم (محمد) مثلا لا يحتاج من الجهد فى الكتابة فى اللغة العربية مثل ما يحتاج الحرف الأول منه فى كتابتنا (Mohammad) ، ولو جعلنا الحيز الذى تشغله الكتابة المدورة خطاً مستقيما ، وجدنا أن الكلمة العربية تشغل من الحيز أقل من ثلث ما تشغله نفس الكلمة عندما تكتب بالاسبانية (Mohammad) .

فليس لنا أن نستغرب إذن ،إذا ما تمكن الناسخ لديهم من أن يكتب أكثر مما يكتب ناسخ فى اللغة اللاتينية . وهكذا عندما يتقاضى كل من الناسخين أتعاباً واحدة ، نجد أن الكاتب العربى يمكنه أن يقدم أربعة أمثال ما يقدمه الكاتب عندنا ، حين يتقاضيان نفس الأتعاب . ولذا كانت اليد العاملة نتيجة لهذا فقط أرخص مما عندنا بمقدار الربع .

ومن جهة أخرى كانت الشعوب فى العصور القديمة وفى أوربا خلال معظم العصور الوسطى تستخدم البردى أو الرق للكتابة ، وهما مادتان باهظتا الثمن ، إما لندرتهما أو للمجهود الذى يبذل فى سبيل تجهيزهما . أما العرب فقد استخدموا الورق منذ عصر مبكر ، وتقدمت صناعته لدرجة أنها قضت على استخدام البردى القديم ، وقللت إلى درجة كبيرة من استخدام الرق فيما بينهم . ولهذا السبب الثانى ، ولكونهم هم الذين يستخدمون فقط هذا الورق المبتكر ، فقد أمكنهم أن يخفضوا مرة أخرى من تكاليف الكتب .

ونستطيع أن نكون فكرة عن مدى الأثر الذى نتج عن استخدام المسلمين للورق وسرعة الكتابة عندهم ، إذا قسنا الأمر على التغير الذى أحدثته المطبعة من انتشار الكتب واقتناء المكتبات كما هو واضح الآن .

وفضلا عن ذلك فان الاسلوب الخاص للمسلمين فى حياتهم (١) جعل من الكتاب الوسيلة الوحيدة للتعليم . وهو وإن كان ليس بسبب أساسى ، كالأسباب السابقة ، إلا أنه كافياً فى حد ذاته ، وفى حالة عدم وجود وسائل أخرى ، ليوضح لنا سبب انتشار الكتب بين المسلمين . كان للاغريق محافلهم السياسية حيث يستطيع أفراد الشعب أن يقفوا على مجرى الأحداث السياسية ، ومسارح تمثل عليها الحياة الإنسانية فى مختلف مظاهرها ، ومجامع علمية تدرس فيها العلوم وتناقش المسائل علناً . وهكذا يتعلم كل شخص ما يروق له أن يتعلمه . ولم يكن للمسلمين شىء من هذا كله . ولذا لم تزدهر الخطابة السياسية فيما بينهم ، إذ لم تتوفر لديهم المناسبات التى تحتاج إلى الخطابة السياسية . وكذلك الحال فى الخطابة القضائية ، لأنه لم تكن هناك محاكم ومحلفون . ولا الخطابة العلمية لقلتها ، ولأن المناقشات التى يدلى فيها بالحجج لم يكن ينظر إليها بعين الارتياح . أما الخطابة الدينية فربما ازدهرت قليلا ومع ذلك فقد خضعت للأهواء وكانت منفردة منعزلة .

وقد اقتصرت حياة الشعب الأدبية على الاستماع فى الأسواق لما يلقى عليهم من القصص الخرافى العجيب ، وعلى قراءة الكتب فى المساجد . ولذا كان الشىء المحبب إليه هو الاستغراق فى الاستماع إلى قصص ألف ليلة وليلة ، وهكذا أصبح العرب أكثر الشعوب فى العصور القديمة شغفاً بالكتب ، ومن ثم كانت هى وسيلتهم الوحيدة للتعليم فضلا عن رخصها .

ولم يكن الاهتمام بالكتب بدرجة واحدة فى مختلف البلاد التى خضعت للمسلمين ، ولا كان بنفس القوة . ويتضح هذا فى البلاد التى ازدهرت فيها الحضارات القديمة . ولذا كان الفرس والمصريون والأسبان أكثر المسلمين حضارة وثقافة ، كما وجد بينهم أكثر هواة لجمع الكتب . ولا نعرف أى طائفة من هذه الطوائف الثلاث كان لها السبق فى هذا المضمار .

---

(١) يذكر ابن خلدون فى مقدمته أن المسلمين فى أول عهدهم كانوا يستخدمون الرق لأنه كان موفوراً وكانت الكتابة قليلة ولكن حينما زاد استخدام الرق فى الكتب وفى الوثائق الحكومية أصبح غير كاف فاقترح البرمكى وزير هارون الرشيد إنشاء مصانع الورق فاستخدم فى الدواوين الرسمية ثم عم الكتب وأتقنت صناعته . ص ٤٠٧ نشرة دسلان .

ولكن لدينا من الأسباب – على الأقل – ما يجعلنا (نحن الاسبانيين) لا نتنازل عن المكان الأول إذا ما عرض الأمر للمناقشة . ففى أسبانيا ازداد الشغف بالكتب ونما للدرجة قصوى جديرة بالإعجاب حقاً .

وعندما اقتصر عدد المسلمين فى شبه الجزيرة فى الأيام الأولى عقب الفتح على الحاميات الحربية التى كانت تحتل المدن والقلاع الحصينة بقصد إخضاع الأراضى التى تحتلها ، كانت الكتب تندب حظها كما يقولون .

وقد احتفظ المستعربون المسيحيون اللاتينيون بالتقاليد الثقافية دون غيرهم . وبلغتهم اللاتينية الأصيلة التى كان يتكلمها أجـــدادهم ، ولكن عندما أخذ عدد معتنقى الإسلام فى الازدياد واحتاجت الدولة إلى علماء فى الشريعة الإسلامية أخذ الناس يلاحظون أولى حركات جلب الكتب والمعارف الشرقية وذلك بالرغم من اقتصارها على علوم الشريعة والفقه فضلا عن قلتها .

وتذكر كتب التراجم أسماء كثير من الشخصيات التى أدخلت كتب المشرق إلى اسبانيا وكذلك أسماء من جلب إليها كتباً مشهورة فى الأدب من الشرق .

فكتاب الكسائى النحوى أدخله جودى بن عثمان النحوى العبسى وكان من مؤدبى أولاد الخلفاء وتوفى عام ١٩٨ هـ (١) . وكتب أهل المدينة (مدرسة مالك) أدخلها عبد الرحمن بن دينار بن واقد الغافقى . ولد عام ١٦٠ هـ وتوفى عام ٢٠١ هـ (٢) .

وأدخل محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كلب بن أبى ثعلبة الخشنى كتب اللغة والشعر الجاهلى (٣) .

ويروى أن قاسم بن ثابت السرقسطى أدخل كتاب العين (٤) .

أما عثمان بن المثنى ويكنى أبا عبد الله فقد قرأ على حبيب بن أوس

(١) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ط ص ٨ ترجمة رقم ٧ .

(٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢١٥ ترجمة ٧٧٤ .

(٣) ابن الفرضى : ص ٢١٦ – ١٧ ترجمة ١١٣١ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٩٣ طبعة ليدن .

ديوان شعره وأدخله الأندلس وكان ممن أدب عبد الرحمن الثانى وولديه محمداً وعمر . وتوفى عام ٢٧٣ هـ (١) .

وأدخل محمد بن عبد الله بن الغازى بن قيس (من أهل قرطبة) يكنى أبا عبد الله الأندلسى علماً كثيراً من الشعر والغريب والخبر (٢) .

وأدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادى يكنى أبا جعفر بعض كتب أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رواية عن ابنه أبى جعفر وبعض كتب عمرو بن بحر (الجاحظ) (٣) .

وقد استقبلت بعض الكتب التى أدخلت إلى الأندلس استقبالا سيئاً فعبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال من قرطبة يكنى أبا محمد أدخل كتب أبى سليمان داود بن سليمان فأخلت به عند أهل وقته (٤) .

وأيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن بلكايش بن اليان القوطى من أهل قرطبة أدخل كتباً غير مرضى عنها ولم يحدث عنه غير ابنه توفى عقب شوال عام ٣٢٦ هـ (٥) .

وقد أدخل بقى بن مخلد من أهل قرطبة ويكنى أبا عبد الرحمن مصنف أبى بكر بن أبى شيبة فكان مثار خلاف ومناقشات . ولد عام ٢٠١ فى شهر رمضان المعظم وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ (٦) .

ولم يكن إدخال الكتب الأندلس قاصراً على العلماء فقط بل شارك فى ذلك أمراء الأسرة المالكة فى قرطبة مثل دحون (حبيب بن الوليد بن حبيب)(٧) وابن الأحمر الهاشمى محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن

(١) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٢٤٩ ترجمة ٨٧٩ .

(٢) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٣٢٣ ترجمة رقم ١١٥

(٣) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٥٨ ترجمة : ١٩٩

(٤) ابن الفرضى : جـ ١ ص ١٨١ ترجمة ٦٥٣ . توفى سنة ٢٧٢ هـ .

(٥) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٧٨ ترجمة رقم ٢٦٨ .

(٦) الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس جـ ١ ص ١٦ وابن الفرضى ص ٨١ – ٨٣ ترجمة رقم ٢٨١

(٧) ابن الأبار جـ ١ ص ٣١ ترجمة ٨٦ .

ابن معاوية (١) أدخلا كتب فقه ودين . وحتى التجـار والرحالة من غير المتعلمين أحضروا معهم كتباً كانوا يشترونها من الوراقين الشرقيين إما بقصد بيعها أو بقصد الظهور بمظهر العلماء مثل أبي بكر الدينوري وهو أحمد بن الفضـل بن العباس الدينوري توفي عام ٣٤٩ هـ (٢) . والكـذاب المدعي والفاجر أبو عمر بن يبقى من أهل قرطبة وهو أحمد بن خالد بن عبد الله بن قبيل ابن يبقى الجذامي توفي عام ٣٧٨ هـ (٣) . ومحمد بن عبيد بن أيوب المعروف بالدباج من أهل قرطبة (٤) . أو ابن رفاعة من رية صانع القلانس .

وكان بعض هؤلاء يقوم بجمع الكتب بدلا من أن يبيعها كما يفعل هواة جمع الكتب كعبد الملك بن حبيب من أهل غرناطة العالم الفاضل الذى هو من أكبر جامعي الكتب (٥) . وحازم بن خالد الالبيرى الذى جمع عدة مخطوطات صحيحة (٦). وموهب الباجي ، وهو موهب بن عبد القادر بن موهب الذى جمع عدداً كبيراً من الكتب فى المشرق وتوفى أثناء عودته إلى الأندلس . أما كتبه فقد أحضرها قوم من أهل باجه كانوا معه (٧) . كما أن بعض هؤلاء أوقف كتبه لينتفع بها الطلاب وكان ذلك إما بحبسها على المساجد أو فى منازل خاصة كما فعل هارون بن سالم القرطبي الذى أوقف كتبه عند أحمد بن خالد (٨) .

وقد أورد أبو بكر بن خير فى فهرسته قائمة مفصلة بالكتب الشرقية من مختلف فروع المعرفة التى أدخلت إلى الأندلس نجدها مذكورة تحت الفصول المختلفة التى خصصها لكل فرع .

وعندما بدأ المولدون الاسبان فى التحمس للدين الجديد وأقبلوا تماماً

---

(١) الضبي : ص ١١٦ ترجمة ٢٧١ .

(٢) ابن الفرضي : جـ ١ ص ٥٨ ترجمة رقم ٢٠١ .

(٣) ابن الفرضي : جـ ١ ص ٥٣ ترجمة ١٨٤ .

(٤) ابن الفرضي : جـ ١ ص ٣٣٦ ترجمة ١١٩٧ .

(٥) مخطوطة الاحاطة لابن الخطيب . الأكاديمية الملكية للتاريخ جـ ١ ورقة ١٣٥ .

(٦) ابن الفرضي : جـ ٢ ص ٣٨ ترجمة ١٥٣٤ توفى ٢٩٨ هـ .

(٧) ابن الفرضي : جـ ٢ ص ٢٦ ترجمة ٤٨٢

(٨) ابن الفرضي : جـ ٢ ص ٣١ – ٣٢ ترجمة ١٥٢ . توفى سنة ٢٣٨ هـ .

على دراسة اللغة والدين الجديدين ، أخذ هذا الاتجاه يحتل المكانة الرئيسية يوماً بعد يوم ، وقويت الرغبة فى القراءة واشتهرت وذاعت بين الناس . وهذا السير الذى كان بطيئاً غير حاسم فى بداية الأمر ثم قوى ونشط فيما بعد ، قد عانى من التقلبات والفتن التى تعرض لها ملك الأمويين إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل الذى كان له من القوة والحظ ما مكنه من إخضاع الثائرين وتنظيم المملكة تنظيما كاملا .

وكان للسلام والنظام أثرهما الطبيعى ، فحلت التجارة والصناعة محل الأسلحة ، ونمت موارد الدولة وازداد الدخل الفردى فى الوقت الذى أثرى فيه بيت المال — بعد تنظيمه — إثراء لم يتح له من قبل .

وقد شعرت قرطبة كعاصمة بهذه النتائج . واتسعت رقعتها إذ ضمت إليها عدة أرباض ، وشيد على ضفاف الوادى الكبير قصور وحدائق وزينات . وضاقت الأسواق والمدافن والمساجد بما يتجمع فيها من أناس ، وأصبح من الواجب إدخال الإنارة العامة وتشييد الأسبلة ومستلزمات رجال الشرطة .

وأصبح من الممكن بفضل جهود القائمين على خزانة الدولة تشييد قنوات المياه والقناطر والطرق . وسمح الحاكم لنفسه بالإسراف والبذخ فى بناء الزهراء تلك المدينة الملكية التى عمل فيها آلاف من العمال من جيليقية وبيزنطة والشرق فى بناء مسكن الخلفاء الجميل الذائع الصيت فى التاريخ .

وقد جذب صيت المدينة إليها أشهر العلماء والطلاب من أقاليم اسبانيا ومن خارجها ، وكذلك أقدر النساخين والوراقين وأغنى التجار . وأصبحت قرطبة بفضل هؤلاء جميعاً مركز التجارة والصناعة وعصب التجارة الغربية فى نفس الوقت . وكان إنشاء مصنع الورق فى كل من طليطلة وشاطبة عاملا جديداً فى زيادة شغف الناس بالكتب والتعليم ؛ ذلك الشغف الذى كان يزداد يوما بعد يوم .

ونظراً لكثرة عدد جماعى الكتب والمكتبات وتنوعها رأيت تجنباً لتشعب البحث أن أكتفى هنا بإلقاء نظرة سريعة على أهم المكتبات الرئيسية وهى المكتبة الملكية التى كانت تحتل المرتبة الأولى سواء لعظم مكانة أصحابها أو لقيمتها وعدد

المجلدات التي كانت تضمها . وقد عرف عن الأسرة الأموية منذ عبد الرحمن الأول الأديب الشاعر اهتمامها بالتعليم . وكان من بين خلفائها الذين تولوا الحكم فلاسفة، مع ملاحظة أن دراسة الفلسفة كانت غير محببة إلى رعاياه . وقد أشار المؤرخون عند كلامهم على عصر محمد إلى المكتبة الملكية على أنها أحسن ما فى مدينة قرطبة ، وقد اشتهر عبد الرحمن الناصر بحبه للكتب حتى بلغت شهرته فى ذلك الامبراطور البيزنطى الذى رأى أن أغلى هدية يمكن أن يقدمها إليه هى كتاب جديد، لاحتياجه إلى كسب محبة السلطان الأندلسى، فأهداه كتاب ديسقوريدس وكانت هذه النسخة رائعة كتبت بحروف من ذهب وزينت برسوم جميلة تمثل النباتات المذكورة فى النص . وقد رجا العاهل الأموى الامبراطور البيزنطى أن يرسل إليه عالماً ليترجم له الكتاب لأنه لا يعرف اليونانية ولم يسهل عليه العثور على شخص عالم بها يستطيع أن يترجم له الكتاب فأرسل إليه الامبراطور الراهب نيقولا ليكون فى خدمته .

ويجب أن نضيف هنا أنه كان من بين الأطباء المسلمين واليهود الذين كانوا يعيشون بقرطبة فى ذلك الوقت أبو عبد الله الصقلى الذى كان يتكلم اليونانية ، وأنه بفضل دراسته الدقيقة أمكن معرفة أسماء كل أنواع النباتات المذكورة فى كتاب ديسقوريدس فيما عدا اثنى عشر نباتاً (١) .

وفى تلك الأيام بدأ كل من ولديه الأميرين الحكم ومحمد دراستهما تحت إشراف معلمين من أهل البلاد ومن خارجها . وقد زاد شغفهما بالكتب إلى درجة قوية جداً جعلتهما لا يرضيان عن مكتبة أبيهما ويتفقان فيما بينهما على التنافس ، أيهما يستطيع أن يجمع مكتبة أكثر عدداً وأفضل اختياراً من الآخر . وبعد مضى قليل من الزمن توفى محمد فورث مكتبته أخوه الحكم الذى آلت إليه مكتبة والده بعد وفاته فجمع بذلك مكتبات ثلاثاً هى مكتبة القصر التى اشتملت على ما جمعه أسلافه ، ومكتبة أخيه محمد ومكتبته هو .

وكان أمهر المجلدين فى اسبانيا يعملون باستمرار فى القصر ومعهم مجلدون آخرون من صقلية وبغداد، ومنمنمون ورسامون ليزينوا الكتب التى

(١) Leclerc, *Histoire de la médecine Arabe T.I, P.*419.

كان ينسخها أمهر النساخين بالحليات البديعة ، وكانت تقدم هذه إلى جماعة من العلماء يتقاضون أجزل العطاء لمقابلتها وتصحيحها .

ومن بين العلماء الذين خدموا الحكم الثانى فى مقابلة الكتب ومراجعتها وتصحيحها محمد بن يحيى بن عبد السلام النحوى المعروف بالرباحى القرطبى وأصله من جيان . أدب عند علية القوم بقرطبة ومن بينهم ابن الحكم الثانى توفى فى رمضان سنة ٣٥٨ هـ (١) ، وكذلك محمد بن الحسين الفهرى القرطبى الأديب اللغوى وراق أبى على البغدادى المشهور ومحمد بن معمر الجيانى ، وكانوا جميعهم مكلفون بنسخ ومقابلة أكثر معاجم اللغة المعتبرة فى ذلك الوقت(٢)

وأكثر من نال تقدير العاهل من بين النساخين الوراقين الذين كانوا فى خدمته عباسُ بن عمرو بن هارون من أهل صقلية . فقد نسخ للخليفة كثيراً من الكتب وجلدها . ولد عام ٢٩٥ وتوفى عام ٣٧٩ هـ(٣) . وظفرُ البغدادى وعباس بن عمرو الصقلى ، ويوسف البلوطى وغيرهما (٤) .

ومن الخطاطات اللاتى كن فى خدمة الحكم الثانى لبنى كاتبته، توفيت عام ٣٩٤ هـ (٥)، وفاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلارى. وكانت كاتبة الخليفة توفيت عام ٤٢٧ هـ (٦) .

وكانت وظيفة رئيس المكتبة من الوظائف الكبرى فى القصر ويشغلها خصى وهو مسئول عن تكوينها وحفظ سجلاتها وصيانة الكتب فى أماكنها . ونعلم من خبر نقل عن أمين لها يسمى «تليد» ، أن المكتبة كانت تحتوى على أربعمائة ألف مجلد وأن فهرسها المشتمل على عناوين الكتب وأسماء المؤلفين

---

(١) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٣٦٤ . ترجمة ١٢٩٠ .
(٢) ابن الأبار : جـ ١ ص ١٠٦ ترجمة ٣٦٢ ، الضبى ص ٦١ ترجمة ٩٤ .
(٣) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٢٤٧ ترجمة ٨٨٤ .
(٤) ابن الأبار : جـ ١ ص ٨٦ ترجمة ٢٨٤ ، والمغرى جـ ٢ ص ٧٦ .
(٥) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٣٦٠ ترجمة ١٤١٣ .
(٦) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٦٣٢ — ٣٤ . ترجمة ١٤٢٢ .

مكون من أربع وأربعين كراسة كل كراسة منها تشتمل على خمسين ورقة . ومن المفهوم أنه لا مغالاة فى هذا التقدير خصوصاً إذا ما تذكرنا أن المكتبة تضم ثلاث مكتبات ، وان الحكم كان يرسل تجاراً مزودين بأموال طائلة يجوبون الأقطار الشرقية لشراء الكتب فضلا عن عملائه الدائمين فى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية وغيرها ، والذين كانوا يخبرونه بكل ما يظهر فى العالم الإسلامى من مؤلفات جديدة فى الأدب ، هذا علاوة على انه كان على اتصال مباشر بالمؤلفين أنفسهم ، مما ساعده فى إحدى المرات على الحصول على أول نسخة لمؤلف دفع ثمناً لها نحو (ألف دينار) إشباعاً لرغبته فى أن يظهر هذا المؤلف فى اسبانيا قبل أن يعرف فى إيران موطن مؤلفه .

ومن الغرباء الذين كانوا يسعون له فى الحصول على الكتب ابن حيان من أهل مصر وابن يعقوب الكندى ومحمد بن فرجان النساخ الوراق من أهل بغداد (١) .

وقد شاع بين رعاياه أن خير وسيلة للحصول على عمل أو نيل حظوة هى تقديم كتب لا توجد عنده ، وهكذا كانوا يهدون إليه أعمالهم أو يقدمون إليه نسخاً من مؤلفات أخرى نادرة ، لدرجة أن أسقفاً من الأساقفة المسيحيين فى قرطبة أهدى إليه تقويماً للأعياد المسيحية الاسبانية . وهو كتاب طريف حقاً قدر له أن يصل إلينا لحسن الحظ .

وقد أهدى إليه ابن مفرج من أهالى فونتاوريا بإقليم قرطبة كثيراً من كتبه التى ألفها . وابن مفرج هذا من أكثر الناس علماً تنقل كثيراً فى بلاد المشرق وكان صديقاً حميما للخليفة ، وكانت عنده مكتبة غنية (٢) .

وألف له محمد بن الحارث بن أسد الخشنى من أهل القيروان كثيراً من الكتب من بينها كتاب قضاة قرطبة الذى سبق لنا أن ترجمناه ونشرناه (٣) .

وكذلك ألف له مطرف بن عيسى الغسانى من أهل غرناطة ويكنى

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٠١ طبعة دوزى

Gayongos: *The History of the Mohammedan Dynasties In Spain,* apendix vol I. P XL,

(٢) المقرى : جـ ١ ص ٦٠٥ .

(٣) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٤٠٤ . ترجمة ١٣٠٨ .

أبا عبد الرحمن ، كتاباً ممتعاً عن تاريخ مدينة البيره سماه « المعارف فى أخبار كورة البيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » . توفى عام ٣٧٧ (١) .

وأهدى إليه أحمد بن محمد بن فرج الجيانى مجموعة من أشعاره (٢) .

وكذلك فعل محمد بن يوسف الوراق من أهل وادى الحجارة فى كتاب له عن جغرافية افريقية (٣) .

وكالف عبد الله بن محمد بن مغيث أبو محمد ويعرف بابن الصفار بأن يؤلف له كتاباً فى أشعار خلفاء الأمويين بالأندلس والمشرق عوضاً عن الخروج معه فى غزواته عام ٣٥٢ هـ . وقد توفى ابن الصفار فى نفس العام (٤) .

ولم يكن ولع الحكم بالكتب من باب التظاهر ولاجمعه لها حباً فى الظهور والبذخ . بل كان يقرؤها ويدون ملاحظاته وآراءه . وقد نالت هذه الملاحظات تقدير العلماء فيما بعد وانتفعوا بها ودلت على أن تسمية الحكم بالعالم كانت بحق إذ أنه تمكن بهذه الطريقة من الوصول إلى مرتبة من العلم والتحقيق يصعب على كثيرين ممن لا يوجد تحت أيديهم مثل هذه الموارد .

وكان المكان الذى تشغله المكتبة ضيقاً وضعت فيه الكتب بعضها فوق بعض على الأرفف . ولم تتسع هذه لها جميعاً للزيادة المضطردة فى الكتب ، ولذا كان من الضرورى أن تنقل إلى مكان آخر . وقد استغرقت عملية النقل ستة أشهر كاملة عمل خلالها عدد كبير من الأشخاص بجد واجتهاد .

وقد استغرق نقل كتب التراجم والمخطوطات ذات القيمة المنسوخة بأقلام قدامى النساخين ومشاهيرهم والكتب الخاصة وقتاً طويلا وذلك لندرتها أو لضخامتها . ولسنا هنا فى مجال تعداد هذه الكتب . ويكفى أن نقول أن جامعى الكتب المتأخرين الذين يتحدثون عن هذه المكتبة يقولون أنها كانت درة لم يحصل على مثيل لها ملك على سطح الأرض من قبل ومن بعد .

---

(١) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٥٦٣ . ترجمة ١٢٠٣ .

(٢) الضبى : ص ١٤٠ — ٤٢ . ترجمة ٣٣١ .

(٣) المقرى : جـ ٢ ص ١١٢ .

(٤) الضبى : ص ٣١٩ — ٣٢٠ . ترجمة ٨٨٤ .

ولم يكن تكوين هذه المكتبة بالأمر الفريد فى قرطبة إذ أن الأسرة المالكة لم تفعل أكثر مما كان يسير عليه أهل قرطبة .

ولنتحدث الآن عن مكتبة من أشهر المكتبات التى كان يملكها أفراد من الرعايا المسلمين ، ألا وهى مكتبة ابن فطيس .

ينسب صاحب هذه المكتبة إلى أسرة من أغنى الأسر بقرطبة كانت تملك جميع منازل الحى المحيطة بالمنزل الذى تقطنه . وقد شيدوا مبنى خاصاً للمكتبة وضع تصميمه بحيث يسمح برؤية جميع خزائن الكتب من مكان معين ، وطلى مدخل المكتبة وسقفها وجدرانها وشرفتها والوسائد الوثيرة والأبسطة باللون الأخضر الذى يرمز إلى الشرف .

وكان يعمل بالمكتبة باستمرار ستة من النساخين لا يتقاضون أجرهم على ما ينسخونه فقط بل يتناولون أجراً ثابت القيمة حتى لا تؤدى العجلة إلى الوقوع فى أخطاء فى الكتابة . وكان أمين هذه المكتبة أديباً من أفاضل أدباء المدينة هو محمد بن عيسى بن محمد بن معلى بن أبى كدر الحضرمى ، ويكنى أبا عبد الله. سكن قرطبة بدرب بنى فطيس ، وأصله من بسطة ، وكان إمامهم فى مسجدهم وله مكانة عظيمة عندهم . ولد عام ٣١٧ هـ وتوفى عام ٣٩٦ هـ (١) ، وكان مكلفاً بعمل فهرست المكتبة ونسخ الكتب الهامة .

وكان ابن فطيس عندما يصل إلى علمه أنه قد وقع لأحد من الناس أصل قيم من أصول الكتب يظل يفاوضه ليحصل عليه لنفسه باذلا أقصى ما يمكن من تضحية فى سبيل ذلك . كان يدفع الضعفين والثلاثة والأربعة أضعاف من قيمته الحالية . وفى حالة فشله فى الحصول عليه بالثمن يسعى للحصول عليه بالواسطة. وإذا لم ينجح فى هذا أيضاً يطلب أن يسمح له على الأقل بانتساخه أو مقابلته على ما لديه من نسخ أخرى لهذا الكتاب . ولكنه حين تظفر مكتبته بأصل كتاب كان لا يسمح بإعارته لأحد مطلقاً ، إذ كان يعلم جيداً وعن خبرة أن المستعير لا يرد المستعار من الكتب إلا كارهاً وأن من السهل على مستعيرى

---

(١) الفرضى : جـ ٢ ص ٧٨ – ٧٩ . ترجمة ١٦٦٢ .

الكتب أن يتناسوا ويتجاهلوا . وإذا ما ضيق عليه أحد الحناق أمر خزنة كتبه أن ينتسخوا نسخة من الكتاب ليعيروها إليه .

ولما كان المال لا ينقصه، ولا تضيره كثرة الإنفاق، فقد دفعه شغفه بالكتب إلى أن ينفق يومياً قدراً كبيراً منه ، فاستطاع بذلك أن يكون أعظم مكتبة في قرطبة باستثناء مكتبة الخليفة .

وقد أتاحت الظروف الفرصة بعد مضى سنوات ، لتقدير قيمة هـذه المكتبة . وذلك أن أحفاده اضطروا نتيجة للظروف السيئة التى لحقت بالأسرة إلى بيعها، وقد بيعت بالمزاد العلنى فى مسجد الحى ، واستغرقت هذه العملية عاماً كاملا، وحصلوا من البيع على أربعين ألف قطعة ذهبية قاسمية ، وذلك بالرغم من أن البيع تم خلال أيام الحرب الأهلية العصيبة ، وقد أورد ابن بشكوال كثيراً من الأخبار عن ابن فطيس (١) .

ومن أشهر جماعى الكتب قاسم بن سعدان بن عبد الوارث بن محمد ابن يزيد مولى الأمام عبد الرحمن بن معاوية ويكنى أبا محمد من أهل رية وسكن قرطبة توفى عام ٣٤٧ هـ (٢) ، وقد أوقف مكتبته عند وفاته على الطلبة مودعاً إياها منزل محمد بن محمد بن أبى دليم .

ومن هؤلاء عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهنى الطليطلى ويكنى أبا محمد، سكن قرطبة، وكان لا يعير كتاباً من كتبه إلا لمن يثق فى أمانته ودينه حفظاً للرواية . ولد عبد الله هذا عام ٣٦٠ هـ وتوفى عام ٣٩٥ هـ (٣) .

وقد اضطر بعض جماعى الكتب فى هذا العهد إلى بيع مكتبته لحاجته إلى قيمتها فى الإنفاق على معيشته . حدث هذا مع يحيى بن عابد بن كيسان ابن معين بن عبد الرحمن بن صالح مولى هشام ابن عبد الملك من أهل طرطوشة ويكنى أبا زكريا ، درس بالمسجد الجامع فى قرطبة ، ويروى الفرضى أنه قال: « لو عدّت أيام إقامتى فى المشرق وعدّت كتبى التى كتبت هناك بخطى لكانت

---

(١) ابن بشكوال : جـ ١ ص ٣٠٢ — ٣٠٧ . ترجمة ٦٧٩ .
(٢) ابن الفرضى : جـ ٢ ص ٢٩٩ . ترجمة ١٠٧٠ .
(٣) ابن بشكوال : جـ ١ ص ٣٤٢ — ٤٥ . ترجمة ٥٥٣ .

كتبى أكثر من أيامى بها » وقد قضى بالمشرق عشرين عاماً وتوفى عام ٣٧٥ هـ (١).

ولم يكن تأسيس المكتبات قاصراً على الأثرياء وحدهم ، بل إننا نجد هذه الرغبة أيضاً بين الطبقات الفقيرة التى تعيش على كسب أيديها .

ونذكر هنا على سبيل المثال مكتبة معلم مدرسة فقير ، هو محمد بن حزم وكان يعيش على ما يكسبه من التدريس للأطفال ، يساعده فى ذلك ابن له يتعهد الصبيان وابنة تتعهد البنات . وقد خصص المبالغ الضئيلة التى كان يستطيع إدخارها لشراء الكتب ، كما استغل أوقات الفراغ بين الدروس لنسخ ما كان يستعيره أصدقاؤه . وبالرغم من أن حالته لم تكن تسمح له باستخدام أمين خاص بمكتبته فقد كانت منظمة محتفظة بقيمتها . وفى بعض الأحيان كان يحقد عليه أدباء قرطبة عندما يصحح لهم كتبهم أو عندما يحصل على نسخ ثمينة فريدة فى رحلاته التى كان يقوم بها إلى الشرق لهذا الغرض .

ورغم أن ملبسه ومأكله يدلان على الفاقة والعوز إلا أن مكتبته كانت مثالا واضحاً لما يمكن أن يحققه الشغف بالكتب القيمة عند الهواة ولو كانوا من ذوى الدخل المحدود . وقد لاقى ابن حزم هذا مصيراً محزناً إذ وافته منيته على ظهر المركب فى طريقه إلى الحج وقذف بجسده إلى البحر (٢) .

ولم يقتصر أمر جمع الكتب على الرجال وحدهم بل شاركتهم النساء فى ذلك ، ولم تكن المرأة الأندلسية كما تخيلها كتاب كثيرون جالسة مسترخية على الوسائد الوثيرة ، تستنشق عبير العطور المتصاعدة من المواقد ، قابعة داخل قمم الحريم ، مستغرقة دائماً فى أحلامها اللذيذة . ولم تكن ممن ينطبق عليها وصف ريكاردو دى بيرى جامع الكتب الإنجليزى المشهور فى القرن الثالث عشر الميلادى ومستشار انجلترا فى بحثه الطريف **Philobiblion** إذ وجه نقداً مراً إلى النساء ورجال الدين فى عصره حيث قال : «والآن ، اليوم نجد الكتب مضطهدة مطرودة بالقوة من منازل رجال الدين حيث كانت فيما مضى تستمتع بمأوى وبحق موروث . لقد كانت فيما مضى تجد

---

(١) ابن الفرضى : جـ ٢ ص ٥٨ – ٥٩ . ترجمة ١٥٩٧ .

(٢) ابن الأبار : جـ ١ ص ٩٣ – ٩٤ . ترجمة ٣١٢ .

على الأقل غرفة داخلية وركناً هادئاً تأوى إليه ، أما الآن – ويا لتعاسة الزمن – فان الكتب يقذف بها خارج الأبواب ليحل محلها الكلاب فى بعض الأحيان أو طيور الصيد، أو فى أحيان أخرى هذا الحيوان البغيض الذى يسمى المرأة والذى لاينبغى أن يعاشره رجل الدين . ولا يكاد يقع نظر هذا الحيوان الذى يبغض العلم دائماً على كتب مستورة تغطيها خيوط العنكبوت حتى يلعنها بأقسى العبارات ويفضل بأن تستبدل بها الأقمشة الحريرية والقرمزية أو أى شىء آخر عديم الفائدة » .

هذه الصفات التى لاحظها ريكاردو دى بيرى على السيدات الإنجليزيات فى عصره لا تنطبق على المرأة الأندلسية سواء فى ذلك نساء الطبقة العليا أو الدنيا فى المجتمع القرطبى .

وكان فى إمكان المرأة أن تتعلم الخط والنحو والشعر فى الدواوين السلطانية مع لبنى الكاتبة المشهورة فى عهد الحكم، وحيث كانت تنسخ فاطمة العجوز الكتب بخطها الجميل فى ثقة واطمئنان . وقد عاشت فاطمة هذه حياتها عفيفة وماتت عذراء على حد قول وثائق ذلك العصر .

ونذكر من بين كثير من السيدات الشغوفات بالكتب من أفراد الطبقة الراقية بقرطبة عائشة وهى من أسرة كبيرة جداً ، دفعها حبها للأدب إلى أن تعزف عن الزواج وتتمسك باستقلالها فى الحياة وتوفيت عذراء فى سن مبكرة، وكانت على قدر كبير من الفصاحة والجزالة فى قصائدها ، وكانت مثالا يحتذى فى قرض الشعر ، وتمتعت بمقدرة عظيمة جداً فى نسخ الكتب . وقد ظفرت ما نسخته بيديها من كتب ومصاحف بالإعجاب والتقدير . ودفعها شغفها بالكتب إلى تأسيس مكتبة من أشهر مكتبات قرطبة فى ذلك الوقت (١) .

وبالإضافة إلى عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم التى سبق ذكرها المتوفاة عام ٤٠٠ هـ (١) ، يجب أن نذكر راضية مولاة الإمام عبد الرحمن

(١) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٦٣ . ترجمة ١٤١٢ .

ابن مخلد الناصر لدين الله وتدعى نجم ، وهي ممن أعتقها الحكم عن أبيه وتزوجها لبيب الفتى ، توفيت في حدود عام ٤٢٣ هـ وقد نيفت على مائة عام بنحو سبعة أعوام ، وقد آلت بعض كتبها إلى أبي محمد بن خزرج [١] ، وكذلك خديجة بنت جعفر بن نصير بن البار التميمي زوج عبد الله بن أسد الفقيه حبست كتبها على ابنتها ابنة أبي محمد بن أسد الفقيه [٢] .

أما نساء الطبقة الدنيا ، فلم يكن عدم وجود جامعات للكتب بينهن سبباً في كراهيتها ، وقد احترفت مئات منهن نسخ المصاحف وكتب العبادة التي كان يكثر الإقبال عليها ، وكن يبعنها فيما بعد إلى الوراقين بسبب ما يمتزن به في عملهن من إتقان كبير ومهارة في الكتابة ، هذا فضلا عن أنهن أرخص أجراً من الرجال .

ذكر عبد الواحد المراكشي (طبعة دوزى — تاريخ الموحدين ص ٢٧٠) نقلا عن كتاب ابن فياض عن مدينة قرطبة أنه كان فقط في الربض الشرقي منها مائة وسبعون امرأة لنسخ المصاحف بالخط الكوفي . فكم كان عـــدد الموجودات في باقي أحياء قرطبة ؟

كان القرآن أكثر الكتب انتساخاً في البلاد الإسلامية ، إذ يقرأه التلاميذ في المدارس ، ويتلوه المصلون في صلواتهم ، ويقرأ ويرتل في المساجد إلى غير ذلك ، وكانت نسخ المصاحف أحسن الكتب من حيث الشكل وتجويد الخط وفخامة التغليف .

وكان هناك دائماً نساخون متفرغون بصفة خاصة لنسخ المصاحف سواء أكان ذلك لعظم الربح الذي يدره عليهم كتابتها أو تبركاً بها ، وها هي أسماء بعضهم :

حكى أن محمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن أبي الفوارس من أهل قرطبة كان من أكتب الناس للمصاحف ، وانه كان يكتب المصحف في أسبوعين أو نحوهما [٣] .

---

(١) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٦٣١ — ٣٢ . ترجمة ١٤١٧ .

(٢) ابن بشكوال : جـ ٢ ص ٦٣١ . ترجمة ١٤١٥ .

(٣) ابن الأبار : جـ ١ ص ١٠٨ . ترجمة ٣٦٤ .

وخلف بن سليمان يعرف بابن الحجاج يكنى أبا القاسم من أهل قرطبة كان متخصصاً فى تنقيط المصاحف لإتقانه علم القراءات توفى عام ٣٩٧ هـ (١) .

وعائشة بنت أحمد القرطبية كانت تكتب المصاحف بخط جميل (٢) .

وابراهيم بن مبشر بن شريف البكرى ، أندلسى يكنى أبا اسحق ، كان يعلم الصبية فى دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة ، تميز بإتقانه فى تنقيط المصاحف ، وتعلم القراءات على كبار المقرئين فى الشرق (٣) .

ونصر المصحفى من أهل طليطلة امتاز أيضاً فى التنقيط وأطلق عليه لفظ النقاط (٤) .

ومحمد بن وضاح من أهل شذونة يكنى أبا عبد الله كان رجلا صالحاً زاهداً يكتب المصاحف توفى عام ٣٦٣ هـ (٥) .

وابن مفصل من أهل مالقة كان ورعاً جداً، يقال انه كتب سبعين مصحفاً كاملا (٦) ، وكان يرفض أن يجرى قلمه بغير الآيات القرآنية (٧) .

ويذكرون انه كان بالأندلس مصاحف ذات شهرة، يقول ابن خليل السقونى: أنه رأى فى مسجد من مساجد إشبيلية الجزء الرابع من مصحف بأحرف تشابه حروف الكوفة ويؤكد أبو الحسن بن طفيل انه كان بخط ابن مقلة المشهور (٨) ، وقد رأى ابن خليل بنفسه مصحفاً فى وادى الحجارة به ملاحظة فى آخره تقول كتبته بقلم واحد قطع مرة واحدة (٩) .

---

(١) ابن بشكوال : جـ ١ ص ١٦٢ . ترجمة ٣٥٦ .
(٢) المقرى : جـ ٢ ص ٦٣١ .
(٣) ابن بشكوال : : ترجمة ١٩٠ .
(٤) ابن الأبار : جـ ٢ ص ٤١٥ . ترجمة ١١٨٧ .
(٥) ابن الفرضى : جـ ١ ص ٣٦٨٧ . ترجمة ١٣٠٤ .
(٦) الإحاطة : ٢ ورقة ١٦٧ أ .
(٧) الإحاطة : جـ ١ ورقة ٣٦ ب .
(٨) المقرى : جـ ٢ ص ٦٤١ .
(٩) المقرى : جـ ١ ص ٦٤١ .

وأشهر المصاحف هو المصحف الذى كان محفوظاً فى المسجد الجامع بقرطبة الذى يظن أنه مصحف الخليفة عثمان ، وكان يعتبر تراثاً مقدساً وكانوا يخرجونه أيام الجمع باحتمالات عظيمة من محفظته ذات القيمة الفنية ، وقد ظل محفوظاً فى مسجد قرطبة حتى عام ٥٥٢ هـ على ما يؤكد ابن بشكوال .

يقول بعض المؤرخين أن الموحدين احتراماً منهم له كانوا يحملونه معهم فى سفرياتهم لأنه كان بركة لهم (١) ، وقد عثر على هذا المصحف عام ٧٣٧ هـ فى المكتبة الملكية بتلمسان، ومن هناك نقل إلى البرتغال ، ثم انتهى به المطاف فى عام ٧٤٠ هـ إلى يد تاجر من أهل فاس .

ويقول آخرون أن المسيحيين عندما دخلوا قرطبة فى عهد ابن حمدين أحرقوا المصاحف التى كانت محفوظة بالمسجد الجامع ومن بينها مصحف عثمان بن عفان (٢) .

---

(١) المراكشى : ص ١٨٢ .

(٢) المقرى : جـ ١ ص ٣٩٨ ، الإدريسى : ص ٢٦٠ طبعة دوزى.